

مكتبة مصر
تقديم
مجموعة محمد وسعيد

صبر وحكمة

إعداد أمير سعيد السحار



رسوم
عبد الرحمن بكر

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل مدني بالقاهرة

صبرٌ وحكمة .. !!

صفا الجوُّ وهدأت الخواطرُ ، وأقبل المنقريُّون إلى دار
سيدهم الحبيب ، قيس بن عاصم ، ليجاذبهم أطرافَ
أحاديث شتى ، في الحرب والإغارة ، والفتك والغدر ،
والصيد والقنص ، والسحاب المطر والجذب الماحل ،





والأبقار والإبل ، إلى غير ذلك من أحاديث يجد فيها
أهل البوادي لذة ومتعة ، لما يشيع فيها من فخر
وتحدث عن النفس ، يُرضى طبيعة العربى الأصيل ،



ويشعره بأنه إنسانٌ يؤثرُ في هذه الدنيا ، لا كميةً
مهملةً على يسارِ الوجودِ .. ١١

والدفع في الحديث ، يطوى هذا وينشرُ ذاك ، وهو
فخورٌ بهذه المكانة التي يحتلها في نفوسِ قومه ، والمنزلة
التي تتمتع بها عشيرته بين غيرها من العشائر والقبائل ،
وما أجملَ العربيَّ حينما يذكرُ هذه المعاني كلها ، فتستفح
أوداجُه ، وتتضخمُ عنقه ، ويرتفع رأسُه عاليًا بين
الراءوس ، فلا تكادُ تشعرُ به والحالُ هذه - إنسانًا يحيا
كما يحيا الناسُ - أو آدميًا يعيشُ كما يعيشون ، بل
كأنما هو ملكٌ من ملوكِ الدنيا في مكتبته أن يطيرَ في
الهواءِ ويلتصقَ السماءَ ، ويخلقُ في الأجواءِ ، ويسبحُ
بين طبقاتِ الماءِ ، ويسرى مع الوحوشِ والطيَّاءِ
لا يعجزه شيءٌ في الأرضِ ولا في السماءِ .. ١١
تلك طبيعةٌ غريبةٌ ، يكادُ ينفردُ بها

العربي من بين غيره من أجناس الناس، وهذه الصفة أثرٌ كبيرٌ في مجرى حياته وطرائق معاشه على الدوام .. !!
وكأنما كان إقبال الحاضرين عليه مدعاةً لإبداعه في الحديث وتفنيته فيه حتى أعجب به الحاضرون كلهم أيما إعجاب . وكان منظره جالساً محتبياً بينهم في فناء الدار يدفع إلى الإعجاب والإجلال .



وبينما هو على هذه الحال من الصفاء الغامر والسرور المبين ، إذ أتى له برجلين : أحدهما مكتوف، والآخر مقتول لا تزال دماؤه حارة قلبية ، وكأنما كان بدله يصرخ من الظلم ، وينادي بطغيان الإنسان واستهائه بالحياة



الغالية العزيرة ..

ولكن القوم سهموا وأجتمعتهم الدهشة ، وأعظمهم



العجب ، وسيطرَ عليهم شعورٌ غريبٌ ، كلُّه الرهبةُ
والخوفُ ، والتشاؤمُ الأليمُ ، واعتقدوا أن السماءَ
ستلقى شواظًا من نارٍ ، وأن الصاعقةَ ستنقضُ على
هذه الرؤوسِ جميعًا ، وأن الزوبعةَ ستهبُ عن قريبٍ ،
وأن العاصفةَ ستعصفُ بكلِّ ما في طريقها ، وتأتى على
الأخضرِ واليابسِ ، وأن قيسَ بنَ عاصمٍ سيشتنها حربًا
ضروسًا لا تهدأ ولا تستقرُّ ..

يا لله ، لقد كان الرجلُ المكتوفُ ابنَ أخيه ، والرجلُ
المقتولُ ولده . وأولهما القاتلُ .. !!

وصوبَ قيسَ نظراتٍ قاتلةٍ إلى الأفقِ الرحيبِ .. لقد
جَنَّبَ نظراته كلَّ إنسانٍ إشفاقًا به ، وحدثًا عليه ،
ووجد في هذا راحةً ، وفرصةً للتفكيرِ الذى لا يبد منه
فى هذا المأزقِ الحرجِ .. لقد صوّر له الغضبُ ألوانًا
رحيئةً من الحلولِ ، فيها جميعًا دماءٌ حارةٌ قانيةٌ ،
وشقاقٌ ونضالٌ ، وعداوةٌ مستحكمةٌ ، وأرواحٌ تزهرُ ،



ونفوسٌ تسيل على أسنةِ الطبا والسّيوفِ .. ١١..

وارتجف بدنه لكلّ ذلك ، واضطربَ فؤاده ، وهلّع قلبه ، وأحسّ به يخفق في عنفٍ وشدةٍ ، حتى كاد ينخلعُ ويطرُ ، ولكنه تماسك قليلاً ، وهزّ رأسه كأنما يطرُد هذه الأفكارَ السودَ من مخيلته .. وزفر زفرةً شديدةً ارتجف لها مَنْ حوله ، وتلاقت أنظارُهم ، وفهموا ما يعتل في نفسه من أحاسيسٍ ، ويختلج في قلبه وفؤاده من مشاعرٍ حمراءَ قانيةٍ .

ولكنه لم يرَ في كلّ هذه البهيمية الشهوانيةِ الحمراءِ إرضاءً لنزعاته ، وإرواءً لنهمتهِ ، بل على العكسِ وجدَ فيها شيئاً يندلّعُ أوارُهُ وحريقاً تعلو في الجو نيرانُهُ فتعصفُ بالقبيلةِ بأسرها ، ولن تقفَ عند هذا الحدِّ ، فهناك زوجاتٌ تعصب ، وتليغُ السننُهن في الدماءِ الحارةِ وتؤججُ النارَ في الصدورِ ، وتشعلُ الحقدَ في

الأفتدة والقلوب .. وحولهن قبائل كثيرة الفروع
والبطون ، ولا بد من اتصال هؤلاء جميعاً بالمعركة ..
بيد أن قيس بن عاصم هدا فجأة ، ونضح وجهه
بالعرق البارد فارتاح من حوله ، وتمكن من جلاء
بالرجلين من الكلام :

- هذا ابن أخيك قتل ابنك .. !!

غير أنه تابع حديثه ، وظل محتبياً كما كان واتجه إلى
ابن أخيه قائلاً في عتاب :

- أنت رميت نفسك بسهمك ، وقتلت ابن عمك .
وصمت ابن أخيه وقد شعر بموقفه على حقيقته ،
فأدركه لون من الندم والذلة ، وأطرق برأسه إلى
الأرض في خضوع .

واكتفى قيس بذلك ، فنظر إلى ابن له آخر في قوة
وحزم ، وقال :



- قم يا بُنى فادفن أخاك ، وحلّ كفاف ابن عمك .
وتوقف قيس قليلاً ، فما أسرع الخطرات الفكرية
فى هذه الساعات العصبية مع رجلٍ موفقٍ ، إنها لتنهال
الهيالاً من كل ناحية ، وتثال اثيالاً من كل فج ،
وتواتيه فى سهولة ويسرٍ .. لقد هدأت نفس قيس بعد
فورةٍ ، وارتاحت بعد ثورةٍ ، وعلم أن الشيطان عند كل
حلٍّ ثائرٍ ، أو رأيٍ فائرٍ ، وأنه لمن الضعف أن يندفع
الإنسان فى هذه السيلِ أعمى أصمٍ ، يتقاذ لثلك
الشهوات الجائرة الخالقة ، التى تقطع الأرحام ، وتباعد
بين الناس ، وتقضى على صفات الخير والبر ، فلا
يكون سوى الغضب الماحق إماماً ، والرأي الأفنى
رائداً ، والمظهر الوحش قائداً .. !!

أجل هدا قيس ، وارتاح قومه لمظهره ، وكأنما أزيح
عن كاهلهم عبء ثقيلٍ ، وأصاخوا إليه حينما تابع



حديثه مع ابنه :

- واحمل إلى أمك مائة ، دية ابنها فإنها غريبة .. ١١
وغامت في الجو سحابة عجيبة ، والعقدت الألسن
وخرست ، وذهل المتقربون لهذه الحكمة السامية ، التي
حفظت هؤلاء جميعاً من قومه وقوم زوجته دمائهم
وأرواحهم وأولادهم ، وذراريهم من بعدهم ، ولكن
عجبهم لقوة الرجل ، وامتلاكه لزمام نفسه واحتماله
هذه الطعنات المسددة ، ولذلك الحمل الثقيل ، كاد
يذهب بألبابهم ، ويطير بهم كل مطير ، وتفاهموا
بالنظرات الصامتة ، ولكنها بليغة فصيحة ، وارتسم
على كل وجه دلائل الإعجاب والتقدير .. !

